فكاهات

فتاة الدير (١)

روى احد مشاهير الكتاب الفرنسويين من اهل القرن الثامن عشر الحادثة الآتية قال

استدعتني بعض الظروف للاعتزال عن باريس مدينة الحركة والضوضآء الى بلدة يسود فيها السكون فقصدت مدينة نانت باشارة من بعض معارفي وقد اطنب لي في مدح تلك البلدة من حيث حياتها الهادئة وجودة هوآئها وجمال مناظرها الطبيعية . فلما بلغتها وجدتها كما قيل لي واحببت البقآء فيها فاكتريت لي منزلاً مفروشاً اقمت فيهِ وجعلت اخفف عن عاتقي من اثقال التعب الذي اصابني في باريس ايام الشغل والجد

وخرجت يوماً للتنزه فقادتني خطواتي الى ضواحي المدينة فرأيت عن بعدٍ بناية عظيمة جميلة تحيط بها اشجار باسقة ونباتات زاهرة والى جانب البناية جدول تجري مياههُ كالبلور . وصادفت رجلاً في طريقي فسألتهُ عن هذا البنآء واصحابهِ فقال لي انهُ دير لراهبات على اسم القديس اوغسطينوس فحدثتني نفسي ان اصل الى الدير وادخل كنيستهُ مصلياً لانهُ من المعتاد ان تكون كنائس الاديار مفتوحة دائماً لدخول من يشآء . فسددت خطواتي نحوهُ وكان ما اراهُ حولي من جمال الطبيعة وبهآء المناظر يقصر المسافة امامي فلم اشعر الا وانا في وسط حديقة الدير المذكور وامام باب المعبد المفتوح . فتقدمت بتمام الاحترام والخشوع وكانت الكنيسة خالية من الناس فاقتربت الى الداخل واخترت مقعداً جثوت بجانبهِ واستغرقت في صلاةٍ حارة وكان سكون المكان وهيئتهُ الرهيبة يؤثران في النفس فلم اذكر اني صليت في

(١) ملخصة عن الفرنسوية بقلم نسيب افندي المشعلاني

حياتي قط باشد ورعاً وتعبدًا مما فعلت في تلك الساعة

وما كدت انم فروض الصلاة واهم بالنهوض حتى قرع اذنيَّ صوت غنآءٍ رخيم ضعيف لا يكاد يسمع خلتهُ تسبيحات جوق من الملائكة يطوفون حول ذلك المعبد المقدس فلبثت جاثياً في مكاني وكأن ركبتيَّ قد سُمِّرتا بالارض . وكانت الدقائق تقرّب ذلك الصوت شيئاً فشيئاً حتى صار بقرب المعبد واذ ذاك فتح باب حذآء هيكل الكنيسة وظهر لي منهُ منظر طُبع للحال على مخيلتي فلا يمحى منها ما حييت . رأيت واذا بعدد غفير من راهبات الدير يسرنَ بكمال الاحترام والنظام وكلٌّ منهنَّ في يدها الواحدة مبخرة من الفضة وفي اليد الاخرى شمعة متقدة وكنَّ جميعهنَّ مطرقاتٍ بابصارهنَّ الى الارض وهنَّ يترنمنَ بذلك اللحن الشجي وكانت ملابسهنَّ بيضآء مما خيل لي انني محاط بجندٍ من الملائكة . فدخلنَ الكنيسة بالترتيب وتبعهنَّ ستٌّ أُخر يحملنَ بين ايديهنَّ نعشاً مغطى بالورد والرياحين فوضعنهُ على مائدةٍ امام الهيكل . واذ ذاك انتهى الصوت الشجي برنةٍ تفعل في النفوس واستولى السكون وجآء آخر الكل كاهنٌ ذو لحية عريضة قد اشتعلت شيباً فوقف مطرقاً بعينيهِ الى الارض . فتبين لي اذ ذاك ان احدى عذارى الدير قد توفيت وهنَّ يحتفلنَ بجنازتها فأثّر فيَّ المشهد كثيرًا وحانت مني نظرةٌ الى الفقيدة فوجدتها فتاةً في مقتبل العمر ونضارة الشباب لم يقوَ الموت على تشويه جمالها ولا على سلب ذلك انتبسم اللطيف المرتسم على شفتيها الصغيرتين وقد بان وجهها المحاط بغدائر شعرها الاسود كالبدر اذا احاطت بهِ غيوم سوداء . ثم تقدم الكاهن فوقف امام الجثة واخذت دموعهُ تتساقط بغزارةٍ وتسكب على لحيتهِ البيضآء ثم ابتدأ في الصلاة على الميتة بلسان يلعثمهُ الحزن وصوتٍ متهدج تقطّعهُ الزفرات المحرقة والدموع المنهمرة . ولما انتهى تقدم الى الجثة فوضع صليباً من الفضة فوق صدرها وقبلهُ ثلاثاً ثم اخذ يد الميتة وادناها من شفتيهِ فما كاد يرسم عليها قبلة الوداع حتى ارتجفت شفتاهُ واهتز جسمهُ وسقط الى كرسيٍ بالقرب من النعش وكأنهُ اغمي عليهِ . ثم تقدمت الراهبات بمنتهى الوقار والسكون وتعاقبنَ على وداعها حتى اذا انتهينَ عدنَ فرفعنَ الجثة وسرنَ كما

دخلنَ بالترنيم الشجي الى حديقة الدير ثم نهض الكاهن فتبعهنَّ سائرًا بقرب النعش ويدهُ في يد الفقيدة . واذ ذاك شعرت بانحلال القوة التي كانت قيدتني بالارض فنهضت وسرت ورآء هذا المشهد وصدري يكاد ينشق من شدة الحزن والاكتئاب . وبلغ المشهد طرف الحديقة حيث أُعدَّت حفرة لاستقبال الجثة فغرسنَ فيها تلك الزهرة الطاهرة وسقينها من دموعهنَّ ثم عادت الراهبات الى الدير ولم يبقَ بجانب الرمس سوى الكاهن فانهُ جلس على حجر بقرب الضريح واستخرط في البكآء . واذ ذاك اقتربتُ منه فاجفل لرؤيتي فكلمتهُ بلطفٍ وجعلت اؤسيهِ واسليهِ ولما خففت شيئاً من لوعتهِ سألتهُ عن الفقيدة وسبب حزنهِ الشديد فأخذ يقص عليَّ تاريخ تلك المسكينة فقال

ان وصي الملك الحالي الدوق فيليب دورليان جآء بريطانيا منذ سبعة عشر عاماً فاعجبتهُ فتاة من اهالي هذه البلدة واحبها فاقترن بها غير انها لما لم تكن من طبقة الاشراف لم يمكنهُ الاعتراف بها جهرًا وفي نهاية السنة ولدت لهُ ابنةً كانت مثال والدتها واصابت الام حمى النفاس فماتت على اثر الولادة . فتحولت محبة الدوق الى ابنتهِ الصغيرة فدعاها باسم والدتها ايلين وسلَّمها الى راهبات هذا الدير ليعتنين بتربيتها وهنَّ يجهلنَ والدها . وكتب الله للطفلة الحياة فعاشت وكانت مثال الجمال والورع والفضيلة وبلغت من سنيها السادسة عشرة وهي كزهرة في اول نضارتها

وحدثت في هذه المدة انقلابات سياسية وتقسمت الاحزاب فوُجد بين الفرنسويين حزبٌ يكره وصيّ الملك المذكور وجرى بعد مراجعات بين هذا الحزب والبلاط الاسبانيولي ان تألفت جمعية سرية غرضها الفتك بالدوق دورليان . وكان زعماؤها خمسةً في نفس هذه المدينة بينهم فتًى يدعى غستون من اسرة شريفة غنية لكنهُ كان وحيدًا لا اهل لهُ في البلاد . وقدَّر القضآء ان غستون رأى يوماً ايلين خارج الدير فاحبها واعجبها ايضاً فاحبتهُ وبعد حين تمكن غستون من اغرآء بواب الدير فكان يسمح لهُ بالدخول الى الحديقة سرًّا ومكالمة الفتاة من النافذة فكانت تقوى بينهما صلة الحب والوداد . ولما نضجت تدابير المكيدة السياسية وتقرر قتل الدوق

اقترعوا على من تعوَّض اليهِ تلك الضربة الفاضية فوقعت القرعة على غستون . ولما كان قد اقسم يمين الطاعة وخشي ان يوسم بالجبن ونكث العهود لم يمكنهُ الا الاذعان فاخذ يهتمّ بالسفر الى باريس لاتمام فعلتهِ غير انهُ كانت تخطر في بالهِ حبيبتهُ ايلين فيقف مفكرًا ثم يقول لا لا فواجبات الشرف قبل واجبات الحب

ولما صمم غستون على مفارقة نانت والسفر الى باريس لقضآء مهمتهِ قصد الدير ليودع حبيبتهُ ايلين وهو يفكر فيما عساهُ ان ينتحلهُ من العذر لغيابهِ عنها ثم خطر لهُ انهُ لا بد من القآء القبض عليهِ بعد اتمام فعلتهِ وسيكون حزآؤهُ الموت لا محالة فماذا يحل بها عند ذلك . ثم جعل يحارب افكارهُ في ان يطلعها على سرّهِ اولا ولم ينتبه الا وهو قد بلغ الدير . وحالما وقع نظرهُ على ايلين رآها باسمة الثغر يتدفق السرور من وجهها ثم بدأتهُ بالحديث فقالت لك البشرى يا حبيبي غستون . قال بمَ . قالت لا تجهل انني ربيبة هذا الدير لا اعرف لي اهلاً ولا والدين غير انهُ ورد امس الى رئيسة الدير رسالةٌ من باريس من مقامٍ سامٍ يقول كاتبها ان والدي يطلب رجوعي الى باريس وانهُ لوجود بعض اسباب تمنعهُ ان يبوح باسمهِ قد عين سيدةً تستقبلني في باريس فتأخذني الى بيتها ريثما يزورني والدي ويعرّفني بنفسهِ وسأسافر غدًا برفقة احدى الراهبات . وانني وان كان يسوءني غيابي عنك هذه المدة القصيرة فانهُ يسرني ان اعلم من هما والدايَ واذ ذاك اكتب اليك فتأتي وتطلبني زوجةً لك وبذلك تتم سعادة كلينا اذ لا تكون قد اقترنت بلقيطة بل بابنةٍ معروفة النسب ويترآءى لي ان اسرتي من الاسر الشريفة فلا تكون قد تزوجت بادنى منك رتبةً . وكان غستون يتلقى هذه الكلمات بمنتهى السرور فقال لقد خدمني السعد فانا ايضاً قد دعتني بعض الاشغال المهمة للسفر الى باريس وكنت آتياً لوداعكِ وقلبي لا يقوى على ترككِ هذه المدة . اما الآن وقد وافقنا الحظ فسنسافر معاً فترعاكِ عيني وتحرسكِ يدي فلا نفترق بعد الآن

وفي الصباح التالي ركبت ايلين عربةً مع احدى الراهبات وامتطى غستون جوادهُ فرافق العربة وعيناهُ لا تفارقان ايلين . وكان قد زوَّدهُ اصحابهُ برسالة الى

زعيمهم في باريس وهو امير اسبانيولي يدعى اوليقار لكي يستقبل غستون ويسهل لهُ الوصول الى الدوق دورليان ليتمكن من قتلهِ . وما زالوا سائرين حتى بلغوا باريس وهناك وجدت ايلين سيدةً تنتظرها فاستقبلتها لتسير بها الى منزلها ورجعت الراهبة . اما غستون فاعطى ايلين اسم المنزل الذي سيبيت فيهِ واوصاها ان تكتب اليهِ وتعرّفهُ بالمحل الذي ستقيم فيهِ لكي يتمكن من زيارتها ثم ودعها وسار منطلقاً الى المنزل الذي عينهُ لهُ اصحابهُ للنزول فيهِ

اما الدوق دورليان فكان لهُ كاتب سرّ يُدعى ديبوا وهو داهية دهماء وسياسي محنك كانت ترتعد رجال فرنسا من ذكر اسمهِ وكان أتبع للدوق من ظلهِ وهو يراقب ماحولهُ بمنتهى الدقة ويسهر عليهِ سهر الام على رضيعها . وكان قد اشتمّ رائحة المكيدة المقصودة فبث العيون والارصاد في كل ناحية وكانوا يبعثون اليهِ كل يوم بما يعنّ لهم من الملاحظات فلم تفتهُ فائتة وعرف بمجيء غستون وغرضهِ بجميع تفاصيلهِ . ولما قرب موعد وصول غستون الى باريس أطلع ديبوا الدوق على جلية الامر فأُعجب الدوق بمهارتهِ وحذقهِ ثم قال والآن فما عندك من الرأي . فقال ديبوا ان هذا الفتى لا يعرفك ولا يعرف الامير اوليقار فسأجعلك انت الامير المذكور واقودهُ اليك فتستخبرهُ عن كل شيء ولاعتقادهِ انك الامير رئيس العصابة فلا يخفي عنك شيئاً . فقهقه الدوق ضاحكاً وقال حسنٌ يا ديبوا فافعل

وما بلغ غستون المنزل حتى دخل عليهِ ديبوا متنكراً ثم طلب الانفراد بهِ وبعد استعمال مكرهِ ودهائهِ المشهور قال لهُ انهُ مرسل من قبل الامير اوليقار لاستقباله واخذهِ اليهِ . فقال غستون ومن اين علم الامير بوصولي . قال كُتب الينا من نانت عن قدومك وعرّفونا انك ستأتي هذا المنزل فكان مولاي الامير يرسلني الى هنا كل يوم للاستخبار عن وصولك . فسرّ غستون لتسهيل الامر واعتقد ان التقادير تمهد لهُ السبيل لاتمام عملهِ الفظيع . ولما استراح قليلاً اخذ شيئاً من القوت ثم سار وديبوا يقودهُ حتى اوصلهُ الى بيتٍ كان ينتظرهما فيهِ الدوق دورليان . فلما دخلا سلم غستون على الدوق وهو يعتقدهُ الامير الزعيم فاخذ هذا يفاوضهُ في الحديث وقد رأى في غستون

جمالاً وذكآءً وشجاعةً وشهامة فاحبهُ محبةً عظيمة وصمم ان يقنعهُ اولاً بترك جمعية الثائرين ثم ان يستميلهُ اليهِ ويعرّفهُ بنفسهِ ويجعلهُ من خواصهِ . غير انهُ لم يتمكن من ذلك في تلك الجلسة وحدها فطيب خاطر غستون وقال لهُ يجب ان تزورني يوميًّا وتعلمني بجميع ما يحدث ومتى حان الوقت المعين فساكون الواسطة لوصولك الى الدوق وانت تقوم بالباقي . فصبغ الدم وجنتي غستون وقال يا مولاي الامير اذا كان لك نفوذ في هذه المملكة فهل يمكن ان اخلص بعد الفراغ من هذا الامر . فتبسم الدوق وقال ولماذا تسأل وهل قبلت ان تقتل الدوق وانت لا تزال راغباً في الحياة . قال كلا ما الحياة عندي بشيء لولا فتاةٌ احببتها واحبتني ووعدتها ان اقترن بها وهي يتيمة وحيدة على ما اظن ليس لها في العالم من يعتني بها سواي فاذا متّ فماذا يحلّ بها . فقال الدوق اذا كان الامر كذلك فلا اسهل من ان تستقيل من هذا الامر وتقترن بحبيبتك فتعيش معها حياة السعادة والهنآء . فتوقف غستون حينـاً ثم قال اواه ما اتعسني انهُ كان يمكن ذلك لو لم ارهن كلامي واقسم بشرفي ان اقوم بما فرض عليَّ ولم يسبق لشرفآء فرنسا ان يحنثوا بأيمانهم ولذلك فلا بد لي من هذا الامر . لكن لي لديك يا مولاي طلبة واحدة ارجو ان تعدني بشرفك ان تجيبني اليها وهي انني سأسعى باحضار هذه الفتاة اليك فكن لها اباً واذا ساعدني الحظ ونجوت ارجع فآخذها واذهب بها الى حيث نكون في أمان واذا القي عليَّ القبض وحكم عليَّ بالاعدام فغاية ما ارجوهُ من نفوذك ان تتمكن من عقد قراني عليها ولو قبل اعدامي بساعة لانني لا احب ان اتركها بعدي عرضةً لكلام الناس فيقولوا انها كانت عشيقتهُ . ثم لي غرضٌ آخر من هذا الزواج وهو ان تصبح ارملتي وتحمل اسم اسرتي فهو شريف وقد احضرت وصيتي فكتبت كل ما املكهُ لها وهو كافٍ لها ما حييت . فتأثر الدوق شديدًا وسقطت من عينهِ دمعة مسحها للحال ثم اقسم لغستون على ذلك وصرفهُ على ان يلتقيا في الغد . ولما رجع غستون الى المنزل وجد فيهِ بطاقةً من ايلين تعلمهُ بمحل اقامتها وتطلب اليهِ ان يزورها في اليوم التاني فبات على امل اللقآء تتجاذبهُ افكار مختلفة بين الموت والحياة

اما الدوق فكان قد أُعجب بغستون اعجاباً عظيماً واحبهُ ونسي انهُ عازم على قتلهِ ثم أطلع دبيوا على افكارهِ وقال اودُّ جدًّا ان احول هذا الفتى عن عزمهِ وأستخصهُ لنفسي

وفي المساء ذهب الدوق لمشاهدة ابنتهِ فأُدخل عليها وكانت المصابيح قد اطفئت بناءً على طلبهِ لانهُ لم يكن يريد ان تعرفهُ ابنتهُ اذ ذاك . فاستغربت ايلين هذا الملتقى في الظلام ودار حديث بين الاب وابنتهِ فأعلمها بتاريخ حياتها ولكنهُ لم يعرّفها من هو واكتفى باعلامها انها ابنة رجل من أعظم اعيان الفرنسيس . فقالت ولماذا لا تسمح لي برؤيتك ولا تأذن لي ان اسكن في بيتك . قال لذلك اسباب تمنع هذا الامر في الوقت الحاضر غير اني ارجو زوالها حالاً فآخذكِ اليَّ واكفّر عما مضى من تركككِ بين جدران الدير . وبعد حديث طويل قالت ايلين يجب ان اعترف لك يا والدي العزيز انني احب شابًّا من الاعيان حبًّا طاهرًا نقيًّا تستحقهُ صفاتهُ الشريفة ولا اظنك تمانع في ذلك فقد اعطيتهُ عهدًا بالزواج قبل ان اعرف ان قيادي ليس بيدي ولست احبّ ان احنث بميني . فقال الدوق سنرى هذا الحبيب واذا كان اهلاً لكِ فلا امانع فيهِ . ثم ودّع الدوق ابنتهُ وخرج

وفي اليوم الثاني ذهب غستون لزيارة ايلين فاخبرتهُ بمقابلة والدها وما حصل فاستغرب غستون عمل الوالد ومقابلتهُ لابنتهِ في الظلام وتركها بعيدةً عنهُ وخامرهُ الريب في امرهِ . فقال لها لا اصدق يا ايلين ان هذا الرجل والدكِ اذ ليس شيء يمنع الوالد من الاعتراف باولادهِ وعدا ذلك فلماذا استدعاكِ من الدير ليسجنكِ في هذا البيت فانا اظن ان في الامر مكيدةً واخشى عليكِ من البقاء وحدكِ . فتنهدت ايلين وقالت آه ما اشقى حظي فانهُ ليس لي في الدنيا سواك وأراك لا تهتمّ بي والا لكنت اخذتني فاسكن معك ونقضي حياتنا معاً . قال اني لم افرغ من عملي بعد ولا يمكنني ذلك قبل اتمامهِ ولكن هلمي معي آخذكِ الى بيت احد اصدقائي وهو الامير اوليفار وتكونين عندهُ في امان الى ان ارجع اليكِ . قالت حبذا الامر فهيا بنا . فاستوقف غستون عربة وركب وايلين وتوجه الى بيت الامير اوليفار . فلما بلغاهُ ترجل غستون

وقال لايلين تنتظرهُ ريثما يعود ثم دخل فقابل الدوق وقال لهُ قد احضرت حبيبتي معي فهل تسمح لي بادخالها . فسمح لهُ الدوق فخرج غستون ثم عاد وقد استندت ايلين على ذراعهِ وهي كالشمس في رابعة النهار . فلما رآها الدوق جحظت عيناهُ وكأن صاعقةً انقضت عليهِ لانهُ عرف ابنتهُ ولكنهُ تجلد فاستقبلها وسمعت ايلين كلام الامير فتذكرت صوت الرجل الذي زارها بالامس ولكنها لم تفاتحهُ بذلك

وخلا الدوق بغستون فجعل يبذل جهدهُ في ارجاعهِ عن عزمهِ وكان اذا مال غستون للاذعان تثور في صدرهِ عوامل الشرف ويتذكر قسمهُ للجمعية فيرتدّ وقد صمَّم النية على اتمام الفرض . ولما رأى الدوق ان لا فائدة من الحديث اعطى غستون رقعةً وقال لهُ خذ هذه فانها تسهل لك الدخول الى القصر الملكي هذه الليلة فان فيهِ سهرة مخاصرة باللباس المتنكر فاذا دخلت فانك ترى الدوق ويمكنك معرفتهُ من حلة سوداآء من القطيفة يرتدي بها وعلى ذراعهِ اليسرى نحلةٌ ذهبية هي علامة تميزهُ عن باقي الناس . والدوق يذهب عادةً في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل الى حديقة القصر ويدخل خيمةً تختص بهِ فلا يدخل عليهِ احد الاّ لامرٍ خطير اذا كانت معهُ رقعةٌ مثل هذه فيمكنك ان تدخل اليهِ في مثل هذا الوقت ويكون وحدهُ وهو مطمئنٌّ خالي الذهن فتطعنهُ الطعنة القاضية

فأخذ غستون الرقعة شاكرًا وخرج . وفي المساء حفلت ابواب القصر الملكي بجماهير المدعوين فاندسّ غستون بينهم وهو متنكر بثوب اعطاهُ لهُ الدوق وجعل يراقب الاشخاص لكي يتبين فريستهُ . وما زالت المخاصرة دائرة والموسيقى تعزف والافراح قائمة الى ان انتصف الليل . وكان غستون قد عرف الخيمة التي يذهب اليها الدوق فجعل يراقب الوقت وهو يرتجف لهول تلك الساعة ويفتكر بحبيبتهِ ايلين وماذا يحل بها ان امسكهُ الحرس وقتلوهُ في الحال فغرق في تأملاتهِ حتى انتبه لصوت قرع الساعة الواحدة فهب مذعورًا وقصد الخيمة . ولما بلغها رأى داخلها رجلاً عليهِ لباس من القطيفة السوداآء تتألق على ذراعهِ النحلة الذهبية وقد جلس على كرسي وادار ظهره الى جهة الباب . فتقدم غستون بتمهلٍ حتى قارب الوصول الى الشخص المذكور

واستل خنجرهُ من تحت ثيابهِ . وفي تلك الدقيقة نهض الشخص الجالس وادار وجههُ الى غستون ولم يكن مقنّعاً فرأى غستون امامهُ الامير اوليڤار فعرف اذ ذاك ان الامير اوليڤار هو نفس الدوق وانهُ قد سقط في حيلةٍ من اول وصولهِ الى باريس . فارتجفت ركبتاهُ وسقط الخنجر من يدهِ ووقع على الارض منطرحاً تحت اقدام الدوق

فتبسم الدوق وقال لنهض يا غستون ولا تتعجب مما جرى واعلم ان قتل الملوك ليس امرًا سهل المنال فان كاتب سرّي ديبوا قد عرف مقصدكم قبل مجيئك الى هنا وقد قابلك بصفة رسول من زعيمكم وقادك اليَّ . ولا انكر انني مذ رأيتك ملت اليك واجتهدت في تحويلك عن عزمك لاجعلك من خاصتي ومما زاد رغبتي في هذا الامر محبتك لايلين ومحبتها لك فلا اكتمك الآن حقيقة الحال وهي انني عفوت عنك اكراماً لها ويهمني جدًّا سرورها وسعادتها فلا اعفو عنك فقط بل اود ان ازفها اليك وقد حان لي ان اعلمك ان ايلين هي ابنتي . . .

ولو وقع الخنجر في قلب غستون لما سبب لهُ التشنج الذي اخذهُ في تلك الساعة فانطرح على قدمي الدوق يقبلهما ويغسلهما بدموعهِ . فانهضهُ الدوق وقال اما الآن وقد هُدمت آمال جمعيتكم فهل انت باقٍ مصرًّا على قتلي . فأخذ غستون الخنجر الساقط على الارض وادناهُ من صدرهِ وقال ان يدي يا مولاي تخترق هذا القلب قبل ان يصلك أذًى . . . ولكن آه ما الذي سيقولهُ فيَّ اصحابي . ان الموت اهون عندي من ان يظنوا اني خنتهم . فقال الدوق لا تفتكر في هؤلاء الخونة فاننا لما عرفنا اسماءهم منك ارسلنا فقبضنا عليهم وحوكموا وقد صدر الامر باعدامهم . فوثب غستون كمن مسهُ جنون وقال لا لا يا مولاي اذا رحمتَ فاجعل رحمتك شاملة ولا تدنس شرفي بقتلهم وتتركني ما حييت عرضةً لتبكيت ضميري فاننا عصبةٌ واحدة تعاهدنا عهدًا واحدًا فليس من العدل ان يموت البعض ويبقى البعض فاما ان تقتلني معهم او ان تعطيني امرك بالعفو عنهم . وكان الدوق يعجب بشهامة غستون وقد أخذ مكاناً من قلبهِ ورأى غستون منهُ ذلك فقال قد وهبتني يا مولاي حياتي ووهبتني يد حبيبتي فثلّث هباتك وامنحني حياة هؤلاء الاربعة كهدية عرس لابنتك . وكان

الدوق طيب القلب جدًّا لين العواطف فاثرت فيهِ كلمات غستون والحال استدعى كاتبهُ فكتب لهُ امرًا بالعفو فوقَّع عليهِ وناولهُ لغستون . فلم يدرِ هذا كيف يشكر الدوق ثم تناول الامر وخرج فتوجه توًّا الى حبيبتهِ ايلين ولما رأتهُ مسرعًا خشيت من حدوث امر مخيف فطمأنها وقال قد صفا لنا الزمان ايتها الحبيبة وانا مسرع جدًّا للرجوع الى نانت وبيدي امر لخلاص اربعة اصدقآء من الموت وسأعود اليكِ فنفترن وامامنا حياة سعادة وسرور اكثر جدًّا مما تتصورين وسيأتي الامير اوليقار نفسهُ ويعلمك بالامر . ثم ودعها بكل سرعة وامتطى جوادًا وجعل ينهب الارض قاصدًا نانت

وكان دبيوا كاتب سرّ الدوق يعلم لين مولاهُ ورقة عواطفهِ وتحقق انهُ سيسمع لطلب غستون ويعفو عن رجال المكيدة فسبق غستون بأخذ امر الاعدام وسلمهُ لبعض رجالهِ وامرهُ ان يسير بمنتهى السرعة الى نانت وان يجري الاعدام حال وصول الامر . ولم يسر غستون بأمر العفو الا بعد نحو ثلاث ساعات من مسير الرسول الاول فما بلغ المحطة الاولى في طريقهِ حتى قيل لهُ ان فارسًا سبقهُ وهو يعدو اشدّ العدو فعرف غستون ان هذا رسول الموت وعزم ان يدركهُ أو يسبقهُ ان امكن فكان يجهد ركوبتهُ واذا رزح جوادٌ تحتهُ كان يتركهُ ويستعيض بغيرهِ . وبلغ الرسول الاول نانت قبل غستون بنصف ساعة فاستعد الحاكم لانفاذ الاعدام وخرجت الجنود الى ساحة المدينة تقود الاصحاب الاربعة الى نطع مرتفع وقف عليهِ الجلاّد بسيفهِ العريض ينتظر وصولهم . وما بلغ غستون اول البلدة حتى رأى الضوضآء عن بعدٍ فاستحث جوادهُ ولكن كان قد نهكهُ التعب فوقع بهِ فانهضهُ ثانيةً واذا بالجواد قد خرّ صريعًا والدم يتدفق من انفهِ وخاصرتيهِ . ولما رأى غستون ذلك وثب عنهُ وجعل يعدو على قدميهِ حتى اشرف على الساحة وكان اول واحد من اصحابهِ قد رقي النطع ورفع الجلاد سيفهُ . فرفع غستون يدهُ التي فيها امر العفو وصاح بأعلى صوتهِ ولكن قوتهُ الخائرة وتعبهُ العظيم لم يمكنا صوتهُ ان يبلغ الى اطراف الحشد واذا بيد الجلاد قد نزلت فأطاحت رأس الاول عن بدنهِ . فتناول الجلاد الرأس واراهُ

للجمهور ثم وضعهُ الى جانب واستُدعي الثاني . ولما رأى غستون ذلك شعر ان الارض تهتز تحت قدميهِ فوقف حينًا يفكر فيما يجب عليه ان يفعل وعلم انهُ اذا اوصل امر العفو لم يرضَ الباقون من اصحابهِ بالحياة بعد قتل اولهم ورأى بانهُ كان هو السبب فيما وصل اليهم من المكروه لانهُ لولا تهاونهُ ورواج الحيلة عليهِ في باريس لما عرفت اسماؤهم . وكان غستون يناجي نفسهُ بهذه الافكار وهو سائر بتمهل فرقي الثاني النطع وقُطع رأسهُ ثم الثالث ففُعل بهِ كذلك وكان غستون قد بلغ المحل فرقي السلم توًّا ولم ينتبه اليهِ احد فجثا فوق النطع ونزلت يد الجلاد فأطاحت رأسهُ وبعد ذلك تقدم الرابع وقُتل ايضاً ولم يُنتبه الى ما كان الا بعد قتلهِ لانهم وجدوا جثث المقتولين خمساً فعادوا يتفقدون الجثث فعرفوا غستون ورأوا في يدهِ الامر الصادر بالعفو

. . . . . .

اما الدوق فرجع بعد تلك الليلة الى بيتهِ وفي الصباح استدعى ايلين فكشف لها الحقيقة ولا تسل عن سرورها اذ ذاك واقاموا ينتظرون رجوع غستون فلم يأتِهم سوى خبرهِ على ما مرّ . اما ايلين فلم تطب لها الحياة ولم تقنعها توسلات ابيها فعادت الى هذا الدير ونبذت جميع مفاخر باريس وعزها . وكنت انا منذ طفوليتها معتنياً بها وكانت تدعوني يا ابي فلما عادت ورأيت انكسار قلبها اخبرتني بهذه الحادثة المحزنة فكنت اسليها واعزيها وهي لا تزداد الا اكتئاباً وضنى . وقد كان امس نهاية السنة من وفاة غستون وكانت تشعر بحمى محرقة فجلست بقربها وبينا انا انظر اليها واتأمل ما صارت اليهِ من الضعف اذا بها قد تبسمت وصاحت نعم يا حبيبي غستون ها انا آتية ثم اسلمت الروح

ولما انهى الكاهن حديثهُ عاد فشرق بدموعهِ وعدت وقلبي طافحٌ بالاحزان